المجمع **10** (1437/2016)، 1-12

جُحا ونوادره

أحمد عازم*

تلخيص:

يهدف هذا البحث لمناقشة شخصيّة جحا ونوادره. فجحا شخصيّة شعبيّة مشهورة تثير الخلاف. ولكنها معروفة في التراث الشعبيّ العربيّ. ومن المؤكد أنّها ليست تابعة لشخص واحد. ولكن الشخصيّة الأقدم من بين شخصيّاته تابعة لجحا العربيّ الذي عاش في القرن السابع للميلاد. وبعده ظهر جحا التركي المتوفى حوالي 1284 ميلاديّة. وبعد ذلك ظهرت شخصيّات أخرى عند أمم مختلفة، وبخاصّة، تلك التي كانت لها علاقة مع الثقافة العربيّة الإسلاميّة.

وأحد تصنيفات التراث الجحوي هو: نوادر الحكمة، نوادر الحماقة، نوادر التحامق، نوادر البخل.

تقديم

تسعى هذه الدّراسة من خلال الكشف عن شخصيّة جحا إلى الإجابة عن الأسئلة المطروحة التالية: لماذا يستعمل الناس النادرة؟ ماذا تقول المصادر العربية عن جحا؟ ما هي سِمات شخصيّته؟ هل هناك جحا واحد أو أكثر؟ من هم الأشخاص الذين أطلِق عليهم هذا اللقب؟ من هو جحا العربيّ؟ من هو جحا التركيّ؟ ما هو تقسيم نوادر جحا؟

لماذا النّادرة؟

تُعتبر النادرة وسيلة من الوسائل التي يستعملها الجنس البشريّ عندما يسرد شخص ما أخبارًا تُثير الضحك، وبخاصة أخبار الحمقى والمغفّلين. ومن أقدم ما كُتِب عن هذا الموضوع عند العرب ما قاله ابن الجوزيّ (508هـ-597هـ) في كتابه "أخبار الحمقى والمغفّلين ..." (ص17-15)، ويتلخّص قوله فيما يتعلّق باستعمالها في الأسباب الآتية:

الأوّل: أنّ العاقل إذا سمع أخبار الحمقى عرف قدر ما وُهِبَ له ممّا حُرِموه، فحثّه ذلك على الشكر.

والثاني: أنّ ذِكْر المغفلين يحثّ المتيقظ على اتّقاء أسباب الغفلة إذا كان ذلك داخلا تحت الكسب، وأمّا إذا كانت الغفلة مجبولة في الطباع، فإنها لا تكاد تقبل التغيّير.

والثالث: أن يُرَوِّح الإنسان قلبه بالنظر في سِيَرِ هؤلاء المبخوسين حظوظًا، فإنّ النفس قد تملّ من الدؤوب على الجد، وترتاح إلى بعض المُباح من اللهو.

ويضيف (ص18): وما زال العلماء والأفاضل يعجبهم المُلَح ويهشّون لها لأنّها تجمّ النفس وتريح القلب من كدّ الفكر، فالترويح عن النفس ضروريّ (بطرياقوب، 178: 2006; Bergson, 1900 - عند طه، 2014).

---

* باحث متقاعد من الطيّبة.

إنّ سرد الأخبار المضحكة في أيّامنا (وليس الخاصّة بالحمقى والمغفلين فقط) له أهداف كثيرة منها ما ذكرناه، ومنها أيضًا:

- لُجوء الشعوب التي تتعرّض للقهر والظلم طويلا إلى النوادر والفكاهات، كوسيلة للتعبير عمّا في صدور أبنائها مع ضمان عدم التعرُّض للبطش والتنكيل من الحكّام المستبدّين. وتُعتبر هذه وسيلة نضاليّة اجتماعيّة (Sully, 1902؛ انظر: طه، 2014) ووسيلة للتنفيس عن الكبت والقهر والمعاناة. وهي تأتي مُقترنة، في الوقت نفسه، بالسخرية من أصحاب القوّة الغاشمة والاستهزاء بهم، لذا نجد أنّ كلمات هذه النوادر تصلح لكل زمان ومكان. وما كتاب "كليلة ودمنة" للفيلسوف الهندي بيدبا وقصص الكاتب الفرنسي لافونتين سوى نماذج لكيفيّة انتقاد "الكبار" وأصحاب الجاه والسلطان، وإظهار عيوبهم ونقاط ضعفهم، وما توجيه النصح إلى الطغاة، سواء عن طريق استخدام الحيوانات كنماذج أو النكات، إلا تأكيدٌ على محدوديّة تفكير أولئك المستبدّين وافتقارهم إلى الحكمة وبُعد النظر. ومن هذا المنطلق نجد شخصيّة جحا في تراثنا الأدبيّ الشرقيّ، شخصيّة أسطوريّة محوريّة (الخشاب، 2006: 5).
- ويرى فرويد في كتابه "النكتة وعلاقتها باللاوعي" (1928- انظر: طه، 2014) أنّ الضحك تصريف لطاقة نفسيّة شعوريّة مكبوتة واعية أو غير واعية. وهكذا يكون الضحك من أفضل الآليّات الدفاعيّة.
- ويوضّح إسماعيل (2013) بأن السخرية ليست وسيلة للتنفيس عن قهر سياسيّ، فحسب، بل هي إحدى آليّات المقاومة السلبيّة، ولذلك فإنها قد تتراكم بشكل يُؤدّي إلى المقاومة ثم إلى الثورة على خلفيّة من التردّي المجتمعيّ في كل المجالات، وهكذا فإنها قد تحوّلت إلى ثورة مع تفاقم الأوضاع، فأطاحت برئيسين في مصر[1] (الاتحاد، 28 أيار، 2014: 16).
- ويمكن أن تُستَعمَل النادرة للعلاج أو لمواجهة صراع البقاء كما حدث مع الشعب اليهودي الذي كان مضطهدًا في كثير من العصور (كوهين، 2004: 15-13؛ بطرياقوب، 2006).

وهناك أهداف عديدة أخرى فصّلها كوهين (كوهين، 2004: 5) عندما تحدّث مُستعرضًا أهدافه من الكتابة عن النكتة اليهوديّة بالذات، بأنه يُريد أن يجلب الفرحة للقلوب وأن يُنير بالبسمة وجوه الأشخاص الحزينين وأن يُخفّف حمل الألم والفقر والعذاب وأن يُمتّع المنطق بأشياء ساخرة وأن يُفرح الجسم والروح بالضحك وأن يُداعب بالنكتة والسخرية وأن يَضحك من الشخص الذي وُجّهت له السخرية وأن يُظهر نواقص العالم والمجتمع، ولكن من خلال أن يشعر الفرد بالنكتة- أن يتحمّل الحياة أكثر ويُحوّلها إلى سهلة أكثر وأن يجعلها أكثر ابتسامًا.

[1] هذا تلخيص وإبراز لأفكار إسماعيل (2013) في هذا الموضوع.

جحا في اللغة

وبرجوعنا إلى "لسان العرب" لابن منظور و"القاموس المحيط" للفيروز أباديّ، نرى أنّ معنى جَحا[1] بالمكان أقام به ومشى وخطا، وذلك اعتمادًا على أبن الأعرابيّ. ويُشير "لسان العرب" اعتمادًا على الأخفش، أيضًا، أنّ جُحا اسم رجل، لا ينصرف لأنّه مثل عُمر بباب زُفَر، وهو معدول من جُحا (ضُمَّ الحرف الأوّل وفُتِح ما قبل الأخير)، وهذا الاسم هو لقب أبي الغُصن دُجَين بن ثابت الفزاري.

جحا في المصادر العربية

لعلّ أقدم إشارة إلى شخصيّة جحا وصلتنا من التراث العربيّ كانت في بيت شعر منسوب لعمر بن أبي ربيعة أورده الآبيّ في "نثر الدرر" وابن شاكر الكتبيّ في "عيون التواريخ" يقول فيه الشاعر المذكور:

دلَّهتِ عقلي وتلعَّبتِ بي حتى كأني من جنوني جحا

ومن كتاب الآبيّ أيضًا نعلم أنّ الجاحظ قد حكى أنّ اسم جحا هو نوح، وأنّه أربى على المائة عام، وأدرك أبا جعفر المنصور، أي أنّه عاش حتى منتصف القرن الثاني الهجريّ.

ويضمّ الجاحظ في "رسالة في الحكمين" جحا في عداد الحمقى. وفي كتاب "البغال" للجاحظ، تَرِد كذلك إشارة إلى جحا في إحدى النوادر.

وفي "ذيل زهر الآداب" للحصريّ، يَرِدُ خبر مفاده أنّ أبا العبر المتحامق نقش على خاتمه العبارة التالية: "توفي جحا يوم الأربعاء"، وأبو العبر هذا شاعر عبّاسيّ توفي عام 250 للهجرة. ويذكر الميدانيّ في "مجمع الأمثال" والدميريّ في "حياة الحيوان الكبرى" نادرة عن لقاء تمّ بين أبي مسلم الخرسانيّ وجحا، ونادرة ثانية مذكورة في "نثر الدرر" و"أخبار الحمقى والمغفلين" تعرِض عبث الخليفة المهدي بجحا وإجازته. (سعد، 1985: 7 -8)

شخصيّة جحا

ورغم ما قيل عن حُمْق جحا في المصادر العربيّة السابقة، إلا أن النوادر التي تراكمت مع العصور تعكس اليوم شخصيّة متعدّدة الجوانب والمواهب، المتفقة حينًا والمتناقضة أحيانًا أخرى:

فهو في بعض الأحيان في غاية الحمق والسّذاجة المفرطة، كما سنرى عند ابن الجوزيّ (508هـ – 597هـ) في النوادر التي كتبها عن جحا. وهو في أحيان أخرى إنسان عاقل حكيم يستنير الناس برأيه الثاقب وبحُسن تقديره للأمور. وأحيانًا نراه داهية واسع الحيلة وغير ملتزم أخلاقيًا. وأحيانًا نراه يلجأ إلى التحامق أو التظاهر بالسذاجة، إمّا ليتخلّص من المواقف المحرجة أو ليُحقّق مأربًا صعُب عليه

[1] هناك نوع من الاختلاف في تعريف هذا الاسم عند الميداني (ت. 548هـ): الاسم جحا لا ينصرف لأنّه معدول عن جاح مثل عُمر عن عامر. يُقال جحا يجحو إذا رما. ويُقال: حيّا الله جحوتك، أي وجهك.

الوصول إليه دون ذلك، وبخاصّة إذا بدا عاقلا أو حكيمًا أو حتّى إنسانًا بسيطًا (الخشاب،2006: 5-6؛ سعد، 1989: 4 5؛ كوهين، 1991: 14).

ويذهب العقّاد أبعد من ذلك (1969 :103)، حيث يُحاول تعليل الجوانب المختلفة في شخصيّة جحا: ما يدلّ على فطنته: يقول ابن الجوزيّ (ت. 597هـ: 44) في أخبار الحمقى والمغفّلين: " رُوي عن جحا ما يدلّ على فطنةٍ وذكاء، إلا أنّ الغالب عليه التغفيل. وقد قيل إنّ بعض من كان يُعاديه وضع له حكايات. وعن مكّي بن إبراهيم: رأيت جحا رجلا كيّسًا ظريفًا. وهذا الذي يُقال عنه مكذوب عليه. وكان له جيران يُمازحهم ويُمازحونه فوضعوا عليه".

ما يدلّ على حُمقه: يقول الميدانيّ صاحب كتاب الأمثال: "هو رجل من فزارة، كان يُكنّى أبا الغصن، ومن حُمقه أنّ عيسى بن موسى الهاشميّ مرّ به وهو يحفر بظهر الكوفة موضعًا فقال له: ما لك يا أبا الغصن؟ قال: إنّي قد دفنت بهذه الصحراء دراهم ولست أهتدي إلى مكانها. فقال عيسى: كان ينبغي أن تجعل علامة. قال: قد فعلت. قال: ماذا؟ قال: سحابة في السماء كانت تظلّلها ولست أرى العلامة". فجحا هنا شخصيّة مفهومة متناسقة، إذ يظهر في غاية الحماقة، كما وصفه الميداني.

وهناك ما يدلّ على أنّه من أصحاب الكرامات: يقول ابن الجوزي (ت. 597هـ): هناك أناس يحسبون أنّه من أصحاب الحالات والكرامات، يتكلّم ولا ينبغي أن يؤخذ عليه كلامه بظاهرة، لأنّه يتعمّد فيه إخفاء الأسرار الإلهية بهذه المضحكات والخزعبلات. وقد حسبه بعضهم من التابعين رواة الحديث ثمّ شكّوا في حقيقة اسمه كما شكّوا في حقيقة مسماه.

وهكذا يُسمع عن جحا ما يدلّ على تغفيل وما يدلّ على ذكاء. وهناك من يوفّقون بين الذكاء والتغفيل فيحسبون أنّ نوادر التغفيل من وضع المفترين عليه. كما يعتبره غيرهم من أصحاب الكرامات.

جحا واحد أو أكثر من جحا؟

لا عهد لنا بشخصيّة من شخصيّات الأدب الشعبيّ أحدق اللبس والغموض بها من جميع جوانبها كما هو الشأن في شخصيّة جحا (المصري، 1980: 17). ومع هذا فهي شخصيّة شعبيّة معروفة جدًا في التراث الشعبيّ العربيّ منذ أجيال عدّة (رجوان، 1984 :7).

والسؤال هو، أكان جحا شخصيّة معروفة حقًّا وموجودة على قيد الحياة أم أنّه شخص وهميّ، نُسِبت إليه النوادر والحكايات؟ (فرّاج، 3).

والأمر المؤكّد، عند الخشّاب (2006: 6) أنّه لا يُعقل أن يكون جحا شخصًا واحدًا، وأنّه هو صاحب أو مصدر كل النوادر والفكاهات المنسوبة له، والتي يصلح كل منها لتأليف مسرحيّة انتقاديّة لاذعة تُثير ضحك الناس جميعًا، بمن فيهم الحكّام، سواء بفعل كوميديا الموقف أو من منطلق "إنّ اللبيب من الإشارة يفهم" أو حتّى أنفسهم، وهذا أعلى درجات السخرية اللاذعة. ويقول العقّاد موسّعًا ومعلّلا

(1969 :101-100): شيء واحد ثابت كلّ الثبوت في أمر جحا، أنّه لم يكن جحا واحدًا ولا يمكن أن يكونه، لأنّ النوادر التي نُسِبت إليه لا يمكن أن تصدر عن شخص واحد للأسباب الآتية:

أ- يستحيل أن تصدر كل النوادر عن شخص واحد لأنّ بعضها يتحدّث عن أناس عاشوا في صدر الإسلام، وبعضها يتحدّث عن أناس عاشوا في عصر المنصور العباسيّ وبعضها في عصر تيمورلنك أو ما بعده بأجيال.

ب- يستحيل أن تصدر كل النوادر عن شخص واحد لاختلاف الشخصيّات التي تصوّرها من مجموعها، فمنها ما يكون التغفيل من جحا، ومنها ما يكون جحا صاحب الذكاء النادر والطبع الساخر الذي يكشف عن الغفلة ويتندّر على البلاهة، ومن هذه الشخصيّات من تتمثّل به الحماقة بغير مراء، ومنها من يتحامق ويبدو في كلامه وتمثيله أنّه يتكلّف ما يقول استهزاء منه بمن يدّعون الحكمة.

ت- ويستحيل أن تصدر كل النوادر عن شخص واحد لتباعد البيئات التي تروى عنها في الأمكنة أو العادات والأخلاق، فقد يروى بعضها عن فارس ويروى بعضها عن بغداد أو الحجاز أو آسيا الصغرى أو غيرها من البلدان. بل ربّما قيل عن جحا إنّه أبو الغصن العربيّ الفزاريّ، وقيل عنه إنّه نصر الدين التركيّ، وقيل عنه إنّه من الحمقى الجاهلين، وإنّه من أصحاب الكرامات المتستّرين بالولاية وهم يجهرون بالهذر والبلاهة.

ث- ويستحيل أن تصدر كل هذه النوادر عن جحا وحده كائنًا ما كان، لأنّها يُنسَب بعضها إلى المجانين من أمثال هبنقة وبهلول، أو إلى الأذكياء من أمثال أبي نواس وأبي العيناء.

ج- ويستحيل أن تصدر كل النوادر عن شخص واحد لأنّ طبيعة الفكاهة تختلف بين تحصيل الحاصل والقياس مع الفارق والمحاولة والمحال، مما يجوز أن يتّفق عرضًا في نادرة واحدة من النوادر، ولكنّه لا يتّفق في العشرات والمئات.

ح- ونحن نقرأ في كتاب واحد فنفهم أنّه شخص موجود أو قابل للوجود، لأنّه متنافس الأخبار، مطبوع في تفكيره وتعبيره على غرار واحد. ثمّ نقرأ عنه في كتاب آخر فنرى صاحب الكتاب مضطرًا إلى تسويغ نوادره المتناقضة بإسنادها إلى المتخلّفين والمنتحلين، أو بافتراء المفترين على "جحا" للنكاية والتشهير.

ويُشير الخشّاب (2006: 6) إلى أنّ بعض المؤرخين يُرجّحون بقيام حكماء ومؤلّفين عديدين على مدى العصور بابتكار بعض النوادر والنكات وإضافتها إلى الرصيد الجحويّ تجنبًا للمتاعب مع المستبدّين من أصحاب السلطان.

بعض الأشخاص ممن أطلق عليهم اسم جحا

تفيد بعض المراجع أنّ جحا هو لقب شخصيّة حقيقيّة لرجل يُدعى أبو الغصن دُجَين بن ثابت الفزاريّ العربيّ الأصل العراقيّ الموطن، بينما ذكرت مراجع أخرى أنه يُدعى نصر الدين خوجة الروميّ التركيّ الأصل (الخشّاب: 6؛ سعد،1989: 5-4؛ كوهين، 1991)، في حين أراح بعض مؤلّفي التراجم أنفسهم

فجمعوا بين الاسمين وأسموه الشيخ نصر الدين الروميّ أبو الغصن بن ثابت. وهناك شبه إجماع على كونه من أصل تركي حيث وُلد بقرية خورثو عام 1208م بناحية سيوري بإقليم الأناضول، وأنّه عاش ومات ودُفن بها في عام 1284م (الخشّاب: 6)، ولكنّ هذا الأمر لا يستقيم مع النوادر التي تدلّ بكلّ ما فيها على أنّ أصلها عربيّ. وكذلك لا يستقيم مع الحقيقة التي تقول بأنّ جحا ذُكر في فهرست ابن النديم[1] (ت. 438 هـ) وغيره من المراجع العربيّة التي ظهرت قبل ولادة نصر الدين خوجة الروميّ بقرون.

ومع اختلاف عصور ظهور شخصيّات جحا، فقد اختلفت مضامين النوادر تبعًا لذلك، فالسخرية الإنسانيّة صدرت عن جحا العربيّ، والسخرية الاجتماعيّة نبعت من جحا التركيّ، والسخرية السياسيّة كان مصدرها جحا المصريّ (سعد، 1989: 4).

وهكذا، ما أن شاعت حكايات جحا وقصصه الطريفة حتّى تهافتت عليه الشعوب. فكلّ شعب وكلّ أمّة على صلة بالدولة الإسلاميّة صمّمت لها "جحا" خاصًّا بها بتحوير الأصل العربيّ بما يتلاءم مع طبيعة تلك الأمّة وظروف الحياة الاجتماعيّة فيها. ومع أنّ الأسماء وشكل الحكايات ربّما تختلف أيضًا، إلا أنّ شخصيّة "جحا" المغفّل الأحمق وحماره لم تتغيّر، بل إنّك تجد الطرائف الواردة في كتاب "نوادر جحا" المذكور عند ابن النديم في فهرسه هي نفسها لم يختلف فيها غير أسماء المدن والملوك وتاريخ وقوع الحادثة، فجحا العربيّ عاش في القرن الأوّل الهجريّ واشتهرت حكاياته في القرنين الثاني والثالث الهجريّ وفي القرون التي تلتها.

ويبدو أنّ الأمم الأخرى استهوتها فكرة وجود شخصيّة ظريفة مُضحكة في أدبها الشعبيّ تنتقد الحكّام وتسخر من الطغاة والظالمين، فنقلت فكرة "جحا العربيّ" إلى آدابها مباشرة وهكذا نجد شخصيّة جحا عند الكثير من الشعوب، ومن تلك الشخصيّات الجحويّة، التي ظهرت في بلدان مُختلفة، غير الثلاث التي ذكرناها سابقًا، ما يلي:

- "ملّه نصر الدين" في إيران،
- "غابروفو" جحا بلغاريا المحبوب،
- "آرتين" جحا أرميبنيا صاحب اللسان السليط،
- "آرو" جحا يوغوسلافيا المغفّل،
- تيل إيبلنشفيجل البالمي (رجوان، 1984: 8)،
- جحا اليهوديّ الشرقيّ (كوهين، 1991: 15-14).

[1] . ابن النديم، الفهرست: ص 435 " أسماء قوم من المغفّلين ألّف في نوادرهم الكتب ولا يُعلم من ألّفها: كتاب نوادر جحا، كتاب نوادر أبي ضمضم، كتاب نوادر ابن أحمر، كتاب نوادر سورة الأهرابي، كتاب نوادر ابن الموصلي، كتاب نوادر ابن يعقوب، كتاب نوادر أبي عبيد الحزمي، كتاب نوادر أبي علقمة، كتاب نوادر سيفويه".

وممّا تقدّم نرى أنّ شخصيّة جحا العربيّ هي أقدم شخصيّات جحا، والنوادر العربيّة تُنسب إليه، منذ القرن الأوّل الهجريّ وتعود، كما أسلفنا، لدُجَين بن ثابت الفزاريّ. وسنكتفي بالحديث عن جحا العربيّ وجحا التركيّ لأنّهما أكثر شهرة من باقي الشخصيّات الأخرى.

جحا العربيّ

هو أبو الغصن دُجَين بن ثابت الفزاريّ عاش نصف حياته في القرن الأوّل الهجريّ (أي في عصر الخلافة الأمويّة) ونصفها الثاني في القرن الثاني الهجريّ (أي عصر الخلافة العباسيّة الأوّل). وهكذا فقد عاصر الدولة الأمويّة وبقي حينًا حتّى عصر المهدي العبّاسي، وقضى أكثر سنوات حياته التي تزيد عن التسعين عامًا في الكوفة. وقد اشتهرت حكاياته[1] في القرن الثاني الهجريّ وما بعده (سعد، 1985: 8).

[1] حكايات جحا العربيّ التي دوّنها ابن الجوزيّ (ت. 597هـ: 48-44):

1. عن أبي بكر الكلبيّ أنّه قال: خرجت من البصرة فلمّا قدمت الكوفة، إذا بشيخ جالس في الشمس، فقلت: يا شيخ أين مجلس الحكم؟ فقال لي وراءك، فرجعت إلى خلفي، فقال: يا سبحان الله! أقول لك وراءك وترجع إلى خلفك؟
2. قال رجل لجحا: سمعت من داركم صراخًا، قال: سقط قميصي من فوق، قال: وإذا سقط من فوق؟ قال: يا أحمق، لو كنت فيه، أليس كنت قد وقعت معه؟
3. حكى أبو منصور الثعالبيّ (350هـ-429هـ) في كتاب "غرَر النوادر" قال: تأذّى أبو الغصن جحا بالريح مرّة فقال يخاطبها: ليس يعرفك إلا سليمان بن داود الذي حبسك حتى أكلت خراك.
4. وخرج يومًا من الحمّام في يوم بارد، فضربته الريح فمسّ خصيتيه، فإذا إحداهما قد تقلّصت، فرجع إلى الحمام وجعل يُفتّش الناس، فقالوا: ما لك؟ فقال: لقد سُرِقَت إحدى بيضتيّ، ثمّ أنه دفيء وحمي، فرجعت البيضة، فلما وجدها سجد شكرًا لله وقال: كلّ شيء لا تأخذه اليد لا يُفقَد.
5. ومات جار له، فأرسل إلى الحفار ليحفر له، فجرى بينهما لجاج في أجرة الحفر، فمضى جحا إلى السوق واشترى خشبة بدرهمين وجاء بها، فسُئِلَ عنها فقال: إنّ الحفار لا يحفر بأقلّ من خمسة دراهم، وقد اشترينا هذه الخشبة لنصلبه عليها ونريح ثلاثة دراهم ويستريح من ضغطة القبر ومسألة مُنْكَر ونكير.
6. تبخّر جحا يومًا فاحترقت ثيابه فغضب وقال: والله لا تبخَّرْتُ إلا عريانًا.
7. هبَّت يومًا ريح شديدة فأقبل الناس يدعون الله ويتوبون، فصاح جحا: يا قوم، لا تعجلوا بالتوبة وإنّما هي زوبعة وتسكن.
8. اجتمع على باب دار أبي جحا تراب كثير من هدْمٍ وغيره، فقال أبوه: الآن يلزمني الجيران برَمْي هذا التراب، وأحتاج إلى مؤنة، وما هو بالذي يصلح لضرب اللبِن، فما أدري ما أعمل به، فقال له جحا: إذا ذهب عنك هذا المقدار فليت شعري أيّ شيء تحسن؟ فقال أبوه: تُعَلّمنا أنت ما تصنع به، فقال: نحفر له آبار ونكبسه فيها.
9. اشترى يومًا دقيقًا وحمّله على حمّال فهرب بالدقيق، فلما كان بعد أيام رآه جحا فاستتر منه، فقيل له: مالك فعلت كذا؟ فقال: أخاف أن يطلب منّي كراه.
10. وَجَّهَهُ أبوه ليشتري رأسًا مشويًّا، فاشتراه وجلس في الطريق، فأكل عينيه وأذنيه ولسانه ودماغه، وحمل باقيه إلى أبيه، فقال: ويحك ما هذا؟ فقال: هو الرأس الذي طلبته. فقال: أين عيناه؟ قال: كان أعمى. قال: أين أذناه؟ قال:

ويقول الخشّاب (2006، 6) أنّه لا يخلو مرجع تحدّث عن نوادر جحا من إشارة إلى زوجته "ريمة"، وهي زوجة مخالفة عنيدة، تتّسم بالشراسة وتتربّص به وتهزأ به دومًا. أمّا ابنه "عجيب" فهو أحمق وخبيث وسليط اللسان وشارد الفكر. وابنته اسمها "جميلة". وصديقه هو أبو النور. وحماره كسول بليد. وقد ألّفت مئات الحكايات المضحكة ونُسبت إليه بعد القرن الثاني الهجري.

جحا التركيّ

وُلِد جحا التركيّ الملقّب بنصر الدين خوجة الروميّ بقرية خورثو عام 1208م بناحية سيوري بإقليم الأناضول بتركيا وعاش بها ومات ودُفِن بها في عام 1284م وقد عاصر الحكم المغوليّ (الخشّاب، 2006: 6).

أمّا بعد ظُهور جحا التركيّ، فالحكايات عن جحا تُنسَب إليه، وهي ما يُمكن أن يُنسب إلى عشرة متباعدين في الزّمان والمكان والعقل والمزاج. وبعض هذه الحكايات مُتأخّر إلى ما بعد اختراع ساعات الجيب وبعضها مُتقدّم إلى أيّام الصّحابة والتابعين (العقاد، 196: 103).

أمّا المنسوب إلى جحا التركيّ فإنّه يملأ مئات الصفحات، وهناك كتاب بالتركيّة مطبوع سنة 1328هـ يقع في 250 صفحة. والأمر الذي لا شكّ فيه أنّ كثيرًا من هذه النوادر وُضِعت بالتركية ولم تُنقل عن

كان أصمّ. قال: أين لسانه؟ قال: كان أخرس. قال: فاين دماغه؟ قال: كان أقرع. قال: ويحك، ردّه وخذ بدله، قال: باعه صاحبه بالبراءة من كل عيب.

11. دفن جحا دراهم في صحراء وجعل علامتها سحابة تظلها. ومات أبوه فقيل له: اذهب واشترِ الكفن، فقال: أخاف أن أشتري الكفن فتفوتني الصلاة عليه.
12. أحضره المهدي ليمزح معه، فدعا بالنطع والسيف، فلمّا أُقعِدَ في النطع، قال للسيّاف: انظر لا تصب محاجمي فإني قد احتجمت.
13. رأوه يومًا يعدو في السوق فقالوا: ما شأنك؟ قال: هل مرّت بكم جاريةُ رجلٍ مخضوب اللحية؟
14. اجتاز يومًا باب المسجد فقال: ما هذا؟ فقيل مسجد الجامع، فقال: رحم الله جامعًا ما أحسن ما بنى مسجده.
15. مرّ بقوم وفي كُمّه خوخ، فقال: من أخبرني ما في كمّي فله أكبر خوخة، فقالوا: خوخ، فقال: ما قال لكم هذا إلا مَنْ أمّه زانية.
16. سمع جحا قائلا يقول: ما أحسن القمر! فقال: أي والله خاصة في الليل.
17. قال له رجل: أتحسن الحساب بإصبعك؟ قال: نعم، قال: خذ جريبين حنطة، فعقد الخنصر والبنصر، فقال له: خذ جريبين شعيرًا، فعقد السبابة والإبهام وأقام الوسطى، فقال الرجل: لِمَ أقمت الوسطى؟ قال: لئلا يختلط الحنطة بالشعير.
18. مرّ يومًا بصبيان يلعبون ببازي ميت، فاشتراه منهم بدرهم وحمله إلى البيت، فقالت امّه: ويحك ما تصنع به وهو ميت؟ فقال لها: اسكتي، فلو كان حيًّا ما طلعت في شرائه بمائة درهم.
19. خرج أبوه مرّة إلى مكة فقال له عند وداعه: بالله لا تطلْ غيبتك واجتهدْ أن تكون عندنا في العيد لأجل الأضحية.

العربيّة، وأنّها ترجع إلى شخص عاش في بلاد الترك ولم تكن نشأته، على الأقل، في بلاد أخرى (العقاد، 1969: 144). وهناك شواهد وأدلّة على أنّ المنسوب لخوجة نصر الدين كُتِب بالتركيّة، ويدعو العقاد (ص145) إلى الجزم بتأليف الترك لكثير من هذه النوادر لأنّها تذكر المدن والأقاليم في آسيا الصغرى وما جاورها بخصائصها المشهورة في هذه الأيام.

والخوجة نصر الدين مشهور بكراماته وكرامات ضريحه في مقبرة "آق شهر" بعد وفاته بزمن طويل. ويذكر الناس أضاحيكه فيضحكون منها ولكنهم يحيلونها إلى حالة أهل الجذب بين عالم الأسرار وعالم العيان. أو يُحيلونها إلى حبّ التقيّة والاحتيال على الموعظة الحسنة بالأسلوب الذي يُؤدّي مرماه ويعفيه من عقباه.

والشّك الأكبر قائم بسبب كثرة النوادر على اجتماع الخوجة نصر الدين بتيمورلنك في أثناء غزوته لبلاد الروم. والمشهور أنّ الخوجة نصر الدين توفي سنة 673هـ أو سنة 683هـ. فهو قد تُوفي قبل تيمورلنك بأكثر من نصف قرن، ولا يُعقَل أنّه حضر مجالسه إلا إذا كانت وفاته حوالي سنة 1405م التي تُوفي فيها تيمورلنك (العقاد، 196 :146). وأيًّا كان صواب النسبة في بعض هذه النوادر التي تحمل الخلاف، فهناك جملة من النوادر لا خلاف في وضعها بعد عصر تيمورلنك وبعد العصر المفروض للخوجة نصر الدين، وهي النوادر التي وردت فيها الإشارة إلى مخترعات حديثة كالبندقية وساعة الجيب، أو كالنوادر التي تُكذّبها وقائع التاريخ العثمانيّ وتاريخ آسيا الصغرى، على الخصوص. ولهذا فمن الواجب أن نُسَلّم بوضع العدد الأكبر من النوادر التركيّة أو نقلها من الأمم الأخرى، لأنّ حصولها كلّها من رجل واحد أمر لا يسيغه العقل ولا يُروى له نظير في السوابق التاريخيّة. فلو أنّ هذا الرجل عاش ليخلق تلك النوادر وعاش معه الناس ليُسجّلوها، لما اجتمع من أضاحيكه تلك المئات التي تملأ المجلدات، ولا استطاع أن يأتي بما فيها من النقائض العقليّة والخُلقيّة، فضلا عن نقائض الجغرافية والتاريخ.

وبعد ظهور جحا التركيّ اختلطت النوادر مع بعضها، والآن من الصعب أن نُميّز لمن هي إلا فيما ندر. وفي العقود الأخيرة أُلِّفت نوادر جديدة في أماكن مُختلفة ونُسِبَت إلى جحا، مع أنّها تستعمل التكنولوجيا الحديثة جدًّا مثل الإنسان الآليّ وسفينة الفضاء وما إلى ذلك، كما يُرى في "سلسلة جحا" (القماحي، 1991).

وبالرغم من ذلك نستطيع تصنيف النوادر التي خلّفها لنا جحا العربيّ وجحا التركيّ إلى أنواع مُختلفة.

تقسيم نوادر جحا

يُمكن تقسيم نوادر جحا إلى أقسام واضحة من حيث الدلالة أو من حيث الدور الذي تُؤدّيه:

- نوادر الذكاء والحكمة (العقاد، 1969: 117-109) 22 نادرة. يظهر جحا في هذه النوادر كإنسان ذكيّ وحكيم وراجح العقل، لا يُشَقّ له غبار في ذلك، بعكس النوادر التي رأيناها عند ابن الجوزي.

- نوادر البلاهة والحماقة (العقاد: 124-118) 20 نادرة. ويظهر جحا في هذا النوع من النوادر كإنسان أبله أحمق لا يفقه ما يقول ويفعل، وتتلاءم هذه النوادر مع تلك التي أوردها ابن الجوزي في كتاب "الحمقى والمغفّلين..."، والتي ذكرناها سابقًا في الحاشية.
- نوادر التحامق والتباله (العقاد: 131-124) 20 نادرة. وهذه نوادر تتوسّط بين الحكمة والحماقة البيّنة. لا نقتصر في اختيارها على النوادر التي يصطنع فيها الحماقة ويتكلّفها كأنّه يُمثّلها ويستعيرها. بل هي من النوادر التي لا تُحسَب بطبيعتها من الحكمة ولا تُحسَب من الحماقة ولكنّها تتوسّط ولكنّها تتوسّط بينهما وتغلب عليها هذه مرّة وتلك مرّة أخرى، وكلّها نُسِبَت إلى جحا كما نُسِبَت بموضوعها أو بمغزاها إلى ذوي السمعة الفكاهيّة من أمثاله (العقاد، 1969: 124). يقوم جحا في هذا النوع من النوادر بدور الأحمق الأبله، وهو يلجأ إلى استعمالها كي يُخلّص نفسه من مآزق كان قد وقع فيها، فهو يُمثّل فيها دور الأحمق، وهو واعٍ للأشياء التي يقولها ويفعلها.
- نوادر البخل (بيومي، د.ت.: 31-7) 6 نوادر. يظهر جحا في هذا النوع من النوادر كإنسان بخيل، يعزّ عليه إطعام أحد، حتّى الضيوف والسائلين والمحتاجين، بالرغم من أنّه قادر على إطعامهم أو التصدّق عليهم.

وهناك تصنيفات أخرى في المصادر المختلفة، ونأخذ منها من المصادر العربية ما عرضه سعد (1985: 279 – 281):

1. جحا طفلا. 2. جحا تلميذًا. 3. جحا ووالده. 4. جحا ووالدته. 5. جحا وزوجاته. 6. جحا وحماته. 7. جحا وأولاده. 8. هيئة وزي جحا. 9. جحا تاجرًا. 10. جحا قاضيًا. 11. جحا محاميًا. 12. جحا واعظًا وإمامًا. 13. جحا وليًّا. 14. جحا مُدَعًى عليه. 15. جحا حمّالا. 16. أحوال جحا المادية. 17. حماقة جحا وغفلته. 18. ذكاء جحا وسرعة بديهته. 19. بُخل وكرم جحا. 20. ثقافة جحا. 21. جحا ضيفًا وطفيليًا. 22. جحا مُضيفًا. 23. جحا واللصوص. 24. جحا والحكام. 25. جحا والفلسفة. 26. جحا والمياه. 27. جحا والنبات. 28. جحا وحماره. 29. جحا وخروفه. 30. جحا وحصانه. 31. جحا وبغلته. 32. جحا والبقرة. 33. جحا والثيران. 34. جحا والبط. 35. جحا والديك الرومي. 36. جحا واللقلق. 37. جحا والدجاج. 38. جحا والأشياء.

وكذلك نجد تصنيفًا مشابهًا بعض الشيء عند كوهين سرانو (كوهين، 1991).

وبرأينا، فالتصنيف الأوّل يحفّز التفكير أكثر من غيره، لأنّه يدعو القارئ أو السامع لتشغيل عقله ليُميّز نوع النادرة التي يتعامل معها، بينما التصنيف الثاني وما شابهه فهو أكثر شفافيّة، ولذلك فهو يُناسب صغار السن لقربه من عقليّاتهم وتجاربهم.

الخلاصة

لقد رأينا أنّه توجد أسباب عدّة لاستعمال النوادر ومنها أسباب ترفيهيّة مثل التسلية، ومنها دينيّة، ومنها النفسيّة حيث يكون الضحك من أفضل الآليات الدفاعيّة، ومنها السياسيّة حيث استُعْمِلت لنقد الحكّام بدون أن يتعرّض قائلوها لبطشهم.

ولعلّ أقدم شخصيّة لجحا كانت لجحا العربيّ، ورغم ما قيل عن حُمْقه في المصادر العربيّة، إلا أن نوادره التي تراكمت مع العصور تعكس اليوم شخصيّة متعدّدة الجوانب والمواهب، المتّفقة حينًا والمتناقضة أحيانًا أخرى: فهو في بعض الأحيان في غاية الحمق والسّذاجة المفرطة. وهو في أحيان أخرى إنسان عاقل حكيم يستنير الناس برأيه الثاقب وبحُسن تقديره للأمور. وأحيانًا نراه داهية واسع الحيلة. وأحيانًا نراه يلجأ إلى التحامق أو التظاهر بالسذاجة، إمّا ليتخلّص من المواقف المحرجة أو ليُحقّق مأربًا صعُب عليه الوصول إليه بدون ذلك، وبخاصّة إذا بدا عاقلا أو حكيمًا أو حتّى إنسانًا بسيطًا.

ولا عهد لنا بشخصيّة من شخصيّات الأدب الشعبيّ أحدق اللبس والغموض بها من جميع جوانبها.

ولقد رأينا بأنّ جحا هو لقب شخصيّة حقيقيّة لرجل يُدعى أبو الغصن دُجَين بن ثابت الفزاريّ العربيّ الأصل، بينما ذكرت مراجع أخرى أنه يُدعى نصر الدين خوجة الروميّ التركيّ الأصل، بينما أراح بعض مؤلّفي التراجم أنفسهم فجمعوا بين الاسمين وأسموه الشيخ نصر الدين الروميّ أبو الغصن بن ثابت. وهناك شبه إجماع على كونه من أصل تركّيّ، علمًا بأنّ هذا الأمر لا يستقيم مع النوادر التي تدل بكل ما فيها على أن أصلها عربيّ. وكذلك لا يستقيم مع الحقيقة التي تقول بأن جحا ذُكر في فهرست ابن النديم (ت. 438 هـ) وغيره من المراجع العربيّة التي ظهرت قبل ولادة نصر الدين خوجة الرومي بقرون.

وبعد اشتهار حكايات جحا وقصصه الطريفة تهافتت عليه الشعوب. فكلّ شعب وكل أمّة على صلة بالدولة الإسلاميّة صمّمت لها "جحا" خاصًّا بها بتحوير الأصل العربيّ بما يتلاءم مع طبيعة تلك الأمّة وظروف الحياة الاجتماعيّة فيها. ومع أنّ الأسماء تختلف وشكل الحكايات ربّما يختلف أيضًا، إلا أنّ شخصيّة "جحا" المغفّل الأحمق وحماره لم تتغيّر، بل إنّك تجد الطرائف الواردة في كتاب "نوادر جحا" المذكور عند ابن النديم في فهرسه هي نفسها لم يختلف فيها غير أسماء المدن والملوك وتاريخ وقوع الحادثة، فجحا العربي عاش في القرن الأوّل الهجريّ واشتهرت حكاياته في القرنين الثاني والثالث الهجريّ وفي القرون التي تلتها.

ونستطيع تقسيم نوادر جحا إلى أقسام واضحة من حيث الدلالة أو من حيث الدور الذي تُؤدّيه، ومنها: نوادر الذكاء والحكمة، نوادر البلاهة والحماقة، نوادر التحامق، ونوادر البخل. وقد أشرنا بأنّ هذا التصنيف يُحفِّز التفكير أكثر من غيره.

المصادر

ابن الجوزي، عبد الرحمن (ت. 597هـ/1201م). أخبار الحمقى والمغفلين من الفقهاء والمفسّرين والرواة والمحدثين والشعراء والمتأدّبين والكتّاب والمعلمين والتجار والمتسبّبين وطوائف تتصل للغفلة بسبب متين. طبعة مصحّحة ومقابلة على عدّة نسخ معتمدة. **ذخائر التراث العربيّ.** بيروت: المكتب التجاريّ للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.

ابن منظور. **لسان العرب**. ط 3. بيروت: دار صادر، 1994.

ابن النديم، أحمد (ت. 518هـ). **الفهرست**. صياغة حديثة. د.م.: دار قطري بن الفجاءة، د.ت.

الاتحاد. النكتة المصريّة أطاحت برئيسين. (28.5.2014)، ص16.

الخشّاب، محمّد. **طرائف جحا**، القاهرة: مؤسّسة طيبة للنشر والتوزيع، 2006.

العقّاد، عبّاس. **جحا الضاحك المضحك**. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1969.

إسماعيل، محمد حسام الدين. **ساخرون وثوار**- دراسات علاماتيّة وثقافيّة في الإعلام العربيّ. القاهرة: دار "العربيّ" للنشر والتوزيع، 2013.

القماحي، السيد. **سلسلة جحا**. القاهرة: دار الكتاب المصريّ وبيروت: دار الكتاب اللبنانيّ، 1991.

السيوطي، جلال الدين والمحلي، جلال الدين. **القرآن الكريم وبحاشيته تفسير الجلالين**. ط2. بيروت: دار الجيل، 1995.

المصري، حسين مجيب. **في الأدب الشعبي الإسلامي المقارن**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 1980.

الميداني، أحمد (ت. 518هـ). **مجمع الأمثال**. القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.

بيومي، عبد العزيز. **نوادر جحا البخيل**، القاهرة: المركز العربيّ الحديث، د.ت.

سعد، فاروق. **جحا ونوادره**. ط2، بيروت: دار الآفاق الجديدة. 1985.

سعد، يوسف. **نوادر جحا**. ط1، القاهرة: المركز العربيّ الحديث، 1989.

طه، إبراهيم. الأدب المجهريّ (2-1)، **الاتحاد**، ملحق الجمعة، ص13. (19.9.2014)

طه، إبراهيم. الأدب المجهريّ (2-2)، **الاتحاد**، ملحق الجمعة (3.10.2014)، ص13.

فرّاج، عبد الستار، أحمد. عيون الأدب العربي- **أخبار جحا**، ط2. القاهرة: دار مصر للطباعة، 1994.

بطرياقوب، ميخائيل. **علاج بالنكتة، الفكاهة كنهج حياة**. يهود مونسون: أوفير، 2006 (بالعبرية).

رجوان، رحميم. **جحا**. جَمع، حرّر وصاغ: رحميم رجوان، تل أبيب: زمورا. 1984 (بالعبرية).

كوهين، أدير. **حياة مع ضحك، الفكاهة- العلاج قولا وفعلا**. حيفا: أماتسيا. 1994 (بالعبرية).

كوهين، أدير. **الكتاب الكبير للفكاهة اليهوديّة والإسرائيلية على مرور أجيالها**. أدير كوهين (جَمع وحرّر). أور يهودا: كينيرت. 2004 (بالعبرية).

كوهين- سرانو، متيلدة. **جحا ماذا يقول؟ قصص شعبيّة يهوديّة- شرقيّة**. سَجّلت وتَرجمت إلى العبريّة متيلدة كوهين- سرانو. القدس: كنا. 1991 (بالعبرية).